مداخلة بعنوان:

أية سوسيولوجية لأي مجتمع

الأستاذ:تياقة صديق والأستاذ فاتح عبد النبي

"جامعة تيارت"

مقدمة:

ان الحديث عن السوسيولوجية العربية أو علم الاجتماع في الوطن العربي يقتضي منا الإحاطة بالظروف و الأوضاع التي توفرت لإنتاجه في بيئته الأصلية(أوربا) أولا ، ثم الظروف والأوضاع والأسباب التي أدت إلى انتقاله إلى العالم العربي وتحت أي ظروف وأوضاع، لمعرفة بشكل جيد أسباب تطوره في مهده الأول (الغرب)، وقصوره في العالم العربي منذ زرعه على ما يربو قرن من الزمان تقريبا. فالتعرف على السوسيولوجية الغربية تشكل مع أول أحتكاك للعام العربي مع الغرب وذلك مع غزوة نابليون بونابارت لمصر سنة1798، وما يمثل ذلك الحدث من تأثير حضاري على كافة الأصعدة الحياتية للمجتمع، وفي الحقيقة فان تقليد الآخر قد مس جميع القطاعات من اقتصاد وإدارة وجيش وقضاء وتشريع وثقافة وتربية وعلوم، وربما كان أصطحاب نابليون بونابارت لأكثر 15. عالم وباحثا وما أنجزوه في مصر دور الدافع والحافز للتعرف على مختلف العلوم الأوربية الحديثة وممارستها ن وتبع ذلك من بعثات محمد علي الطلابية يتقدمهم أمام البعثة رافع رفاعة الطهطاوي، و طه حسين وأحمد أمين وقاسم أمين وسمير أمين وغيرهم كثر، وذلك للتعرف على الحضارة الأوربية ومنجزاتها العلمية والتقنية المبهرة، وبالتالي تم التعرف على العديد بالنسبة لتلك البعثات الطلابية على العديد من المنجزات العلمية للحضارة الغربية في معظم المجالات العلمية ومنها علم الاجتماع.

وبالفعل تم تكوين رعيل من السوسيولوجيين العرب في الجامعات الغربية، وتبعه تشكل لرعيل ثاني تكون في الجامعات العربية وبذلك تكونت كوكبة من علماء الأجتماع العرب على مر عقود طويلة. غير ان بعد تلك العقود الطويلة من التجربة والتكوين- كما يقول المرحوم عالم الاجتماع الجزائري جمال الدين غريد[1]- ، لم تثمر على نتائج مقنعة، وفي مجالات حيوية عدة يظهر كل شيء باهتا وغير مستقر و قابل للتقهقر، لا شيء تجذر وتأصل في المجتمع العربي، لا الديمقراطية ولا التصنيع ولا علم الاجتماع.

نحن نحاول في هذه الدراسة أن نتأمل هذا الأمر مركزين على مثال علم الاجتماع، وعلى طريقة أنتقاله إلى العرب، على تاريخه الطويل والأسباب الكامنة وراء قصوره الراهن.

1- ظروف نشأة علم الاجتماع

1-1في العالم الغربي:

لقد نشأ علم الاجتماع في الغرب الحديث في خضم الحركة العلمية التي عرفها في مجالات علوم الطبيعة والفيزياء، أذا تميز ذلك العصر بالأكتشفات العلمية وتطبيق المنهج العلمي الحديث للتفسير الظواهر هذا من جهة ومن جهة ثانية ان المجتمع الاوربي عرف ثورتين كبيرتين لم يعرفهما من قبل هما الثورة الصناعية والثورة السياسية(الثورة البريطانية، الثورة الفرنسية)، وما نتج عنهما فالثورة الصناعية هزته هزة عنيفة، وشكلت منعطفا في تاريخيا حاسما. فقد كانت الثورة الصناعية والثورة السياسية ومانتج عنهما من أحداث وتقلبات على كل المستويات فاتحة لعهد جديدي وحضارة جديدة. وقد هزت هاتان الثورتان المجتمعات الأوربية هزات عنيفة ومتتالية برز بعدها المجتمع الأوربي كما هو اليوم، أي مجتمع صناعي رأسمال وليبرالي[2].

زيادة على ذلك أن تلك الاكتشافات العلمية وُظفت كلها إلى خدمة المجتمع وتحقيق رفاهيته، علم الاقتصاد لحل المشكلة الاقتصادية وعلوم الطبيعة والحياة(البيولوجية) للقضاء على الأمراض واكتشاف الأدوية. وهكذا وحسب أميل دوركايم بأن الشعور بضرورة دراسة المجتمع يرجع إلى طابعه غير السوي والى الفوضى السائدة فيه، وبالفعل فان المرحلة التي ظهر فيها علم الاجتماع إلى الوجود تتميز بأزمة لم يعرف التاريخ لها وجود تتميز بأزمة لم يعرف التاريخ لها مثيلا، فهي قد عاشت أكبر تحول في تاريخ الإنسانية[3]. وقد جاء علم الاجتماع يحاول أن يخرج المجتمع الأوربي من أزماته ويداويه من أمراضه المزمنة، و وفي نفس الوقت- بذلك- يجد لنفسه مكان بين العلوم الحديث، والتي قسمت حسب أوغست كونت إلى علوم تجريبية وعلوم أنسانية وقد صنف علم الأجتماع مع هاته الأخيرة في آخر الترتيب. وإذا كانت تقاس دقة أي علم آنذاك بمدى استعماله للغة الرياضيات فان مدى علمية أي علم وصحة نتائجه كانت تقاس بمدى خدمته للمجتمع الأوربي في ذلك الوقت والإنسانية جمعاء، وفي هذا الصدد قال أميل دوركايم، في نهاية القرن التاسع:" ان السوسيولوجية لن تستحق ساعة واحدة من العناء ان لم تكن لها فائدة عملية"[4]. ومن هنا بان السوسيولوجية لا بد أن تكون عملية أذا أرادت أن تكون علمية.

أذا نفهم أن علم الاجتماع نشأ نتيجة ظروف اجتماعية واقتصادية، أو شأت تدقيقا لتحقيق حاجات ورغبات، كان المجتمع الأوربي محوج إليها أشد الحاجة، وتراكمات علمية أدت إلى ولادته. و ان كانت هذه الولادة مستعصية وقيصرية. فهل هذه الظروف نفسها عرفها المجتمع العربي؟.

1-2 ظروف أنتقاله ونشأته في العالم العربي:

بالطبع لا، فالعالم العربي مشرقه ومغربه لم يعرف الثورة الصناعية أو التكنولوجية ولا تراكمية علمية أفضت إلى ثورة تكنولوجية مثلما حدث في الغرب، ولم أكن مبالغا في القول أذ قلت حتى اليوم يستطع ان يستوعب منجزاتها التقنية، ويواكب التقدم الحضاري الغربي، وإذا كان السؤال المحير الذي طرحه شكيب أرسلان في نهاية القرن التاسع عشر" لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم". فانه لم يلقى الإجابة حتى اليوم. وفي الحقيقة أن العالم العربي تعرف على الحضارة الغربية ومنجزاتها مبكرا مع الاستعمار، فمع منتصف القرن التاسع عشر يمكن القول ان العالم العربي مشرقه ومغربه. والذي ينظر إليه بأنه احتكاك حضاري تم بين الغرب الصناعي، والشرق الزراعي وبذلك أطلع على الكثير من علومها كما أسلفت الذكر ومنها علم الاجتماع.

وطبيعيا أن يتأثر العالم العربي بثقافة الاستعمار سواء الانجليزي منه أو الفرنسي أو غيره، بعد إن كان العالم العربي خاضعا له وتحت وصايته على ما يربو قرن من الزمان أو أكثر تقريبا حسب كل بلد. فالثقافة العربية الحديثة في الإطار المكاني أو الإقليمي ارتبطت بثقافة المستعمر في مجالات عديدة، وهذا بدوره أثر في البيئة الأجتماعية للمجتمعات العربية. وفي هذا الإطار أيضا يمكن النظر إلى الأقاليم العربية كمنطقة ثقافية تضم بداخلها قسمين كبيرين متمايزين وكل قسم أرتبط بثقافة غربية، فالفكر الاجتماعي والمعرفة العلمية لدى عدة دول بالمشرق العربي إلى حد كبير بثقافة المستعمر الأنقليزي، في حين أرتبط مجتمع شمال أفريقيا بشكل كبير بثقافة المستعمر الفرنسي، وهذا الارتباط ساهم في التلاقح والتبادل الحضاري بين الثقافة المحلية وثقافة المستعمر"[5].

واستمر الحال عليه إلى مرحلة الاستقلال، بحضور ثقافة المستعمر إلى جانب الثقافة المحلية والتي تبنتها الدولة الجديدة في إطار تحديث المجتمع، وبالتالي ظهر مركب ثقافي يتصف بازدوجية التفكير واللغة والثقافة، أو ما يسمى بالثنائية على كافة المستويات والأصعدة وحتى النخب. كما تجلى ذلك في الخطط التنموية والمشاريع الكبرى المتعلقة بالتنمية لتلك المجتمعات. فالفكر السوسيولوجي في البلاد العربية ليس أحادي المنبع.

و"يبدو أن هذا النمط الثقافي وما ترتب عنه من ممارسات سوسيولوجية يمثل أستجابة لافتقار الثقافة المحلية إلى نظريات واضحة المعالم ومناهج علمية تمكن من حل المشكلات المتجذرة والتي تعاني منها المجتمعات العربية وتحقق طموحاتها. كل ذلك أدى الى أستيراد حلول جاهزة بتبني نظريات ومناهج من ثقافات أخرى طبقت في الغالب وبوسائل وتقنيات ثقافة المستعمر"[6]. وفي هذا السياق التاريخي وعلى المستوى الأيديولوجي، بقيت السوسيولوجية في البلدان العربية- على قلتها- رهينة التوجهات التنموية والأيديولوجية للدولة الوطنية والمرتبطة أما بالتوجه الاشتراكي أو الرأسمالي، توجهات نتج عنها نوعين أثنين من علم الاجتماع: علم الأجتماع البرجوازي وعلم

الاجتماع الاشتراكي ولكل نوع من علم الاجتماع منطلقاته الفكرية والأيديولوجية، فالأول كان هدفه الحفاظ على النظام القائم مع محاولة خلق ميكانيزمات التوازن في هذا النظام. أما الأتجاه الثاني والذي يعتبر مضاد للأول وهو علم الأجتماع الأشتراكي الغرض منه حل المشكلة الاجتماعية بطريقة راديكالية بمعنى تغيير المجتمع الرأسمالي وتحويله إلى مجتمع أشتراكي لحل مشكلة التناقض الرئيسي بين رأس المال والعمل[7]. وقد ساد علم الاجتماع الأشتركي في معظم البلدان العربية كون ذلك صاحب عملية التحرر من الأستعمار والبناء كون معظم البلدان العربية المتحررة من الاستعمار، أتبعت التوجه الأشتركي وذلك أستكمالا للتحرر الذي ترى في اختياره نهجاً مخالفاً للاستعمار، لان معظم الدول الاستعمارية كانت ذات توجه رأسمالي. وذلك ما سمي بالمرحلة المضادة وذلك على نقيض مرحلة الاستعمار.

ومن بين علماء الاجتماع العرب الذين تبنوا منطلقاته الفكرية، هشام شرابي في دراسته المجتمع العربي، حيث تبنى النظرية الجدلية الماركسية في تحليل البحوث الأجتماعية، ومنهم من حاول تفسير الفكر العربي تفسيرا ماديا تاريخيا(محمود أمين)، ومنهم من حاول دراسة التراث دراسة مادية تاريخية حسن مروة، ومنهم من طبق الماركسية كمنطق ضمني في أبحاث اجتماعية جديدة وجدية حول ماضينا وحاضرنا، مثل عبد الله العروي[8].

2- علم الاجتماع في الوطن العربي من الوثبة إلى النكبة

البدايات وتكون الرعيل الأول: قلنا سابقا ان العالم العربي تعرف على منتجات الثقافة الغربية ومجالاتها العلمية مبكرا ومنها علم الاجتماع،و ذلك في الجامعات الغربية. ففي عام 1913، ناقش منصور فهمي أطروحة الدكتوراه حول وضعية المرأة في الإسلام تحت أشراف الدروكايم لفي بريل(1857-1939) وفي عام 1918 ناقش طه حسين أطروحة الدكتوراه الجامعة حول " الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون" وكان قد أعدها تحت أشراف أميل دوركايم نفسه[9]، مؤسس المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع وناقشها سنة 1918 بعد وفاة هذا الأخير سنة 1917، تحت أشراف تلميذه سلستان بوقلي(1870-1940).

يقول الباحث جمال الدين غريد، لهذين الحدثين دلالتين أثنتين:

الأولى أن العالم العربي تعرف على السوسيولجيا في فترة مبكرة. ففي الوقت الذي كان فيه منصور فهمي وطه حسين يعدان أطروحاتهما كان الأباء المؤسسون لعلم الاجتماع جميعا على قيد الحياة بل كانوا في أوج عطائهم العلمي. ففي هذه الفترة كانوا قد نشروا أو بصدد نشر أمهات أعمالهم. فدركايم كان قد نشر مؤلفه" الأشكال

الأولية للحياة الدينية" سنة1912، وبارتو عمله المركزي المدخل لعلم الاجتماع سنة 1916، أما فيبر الذي شرع في تحرير كتابه الأساسي الأقتصاد والمجتمع" سنة 1909، ثم توفي 1920، قبل صدوره الذي لم يتم الا سنة1922.

الثانية ان التعرف بالسوسيولوجيا كان في الوقت ذاته تعرفا بأبن خلدون الذي يرجع الفضل في أكتشافه الى أوربا ورده الى أهله وثقافته[10].

نستنتج أذا من هذين الحدثين نتائج كثيرة، تعرف العرب أذن مبكرا على السوسيولوجية الدوركايمية وتعرفوا عليها بصفة مباشرة فتكون جلهم في الجامعة الفرنسية على أيدي المؤسسين الأوائل لعلم الاجتماع من الدوركاميين، أعدوا الأطروحات تحت أشرافهم وترجموا بعض أعمالهم وأسسوا فرعا لتدريس السوسيلوجيا في الجامعة المصرية وذلك سنة1925. فكانت الهيمنة الدوركايمية تكاد تكون مطلقة على الرعيل الأول من السوسولوجيين العرب وخصوصا المصريين منهم، وهكذا فقد أشرف لفي بريل على أطروحة منصور فهمي أول متحصل على دكتوراه دولة في علم الاجتماع وأشرف فوكوني على عمل عبد الواحد وافي أول أستاذ كرسي في علم الاجتماع وعلى دبلوم علي عبد الواحد عبد العزيز عزت حول " علم الاجتماع عند أبن خلدون ودوركايم"سنة1937، وأشرف علي عبد الواحد وافي والذي يعتبر نفسه دوركايميا على أول دكتوراه مصرية في علم الأجتماع أعدها مصطفى الخشاب سنة 1949. وفي سنة 1950نقل محمود قاسم إلى العربية كتاب "قواعد المنهج في علم الأجتماع لدوركايم"[11].

و لم يقتصر التكوين المصري على المدرسة الفرنسية الدوركايمية بل تعداه الى المدرسة البريطانية والأمريكية، وخصوصا في الأنثروبولوجيا وفروعها الحديثة، مثل أبو الأنثروبولوجيا العربية احمد أبوريد الذي درس عند أفانز بريتشارد في الجامعة البريطانية. ولهذا الحدث لا يقل شأن عن الحدثين السابقي الذكر من ناحية الأهمية، فقد تعرف العرب على الأنثروبولوجيا في مراحلها الأولى من التشكل، أي في الوقت الذي بدأت تشق فيها طريقها العلمي، وتكون على مؤسسي العلام الجديد أنفسهم(أفانز بريتشارد) فكانوا محمولين على أكتافهم، بل ان منهم من ساهم تأسيس الأنثروبولوجيا في الجامعات العربية وقام بالتدريس فيها (أفانز بريتشارد).

يتقدمهم العالم الأنثروبولوجي الكبير الذي لقب ب"شيخ الأنثروبولوجيين العرب": الدكتور احمد مصطفى أبو زيد (ولد 3 مايو 1921) هو أحد رواد علم "الأنثروبولوجيا" العرب والفائز بجائزة النيل للعلـــوم الاجتماعيـــة لعـــام

2011، وكانت جامعة المنصورة رشحته لنيل الجائزة لهذا العام.حصل على درجة الدكتوراه في الانثروبولوجيا من جامعة أكسفورد1956. وهو خبير سابق في مكتب العمل الدولي بالأمم المتحدة، وأستاذ زائر في عدد من الجامعات العربية والدولية، ومستشار السابق لمجلة "عالم الفكر" الكويتية، ومقرر لجنة الدراسات الاجتماعية في المجلس الأعلى للثقافة في مصر حاليا. كاتب مصري ولد بمدينة الإسكندرية في أوائل العشرينيات من القرن الماضي، تلقى تعليمه بجامعتي الإسكندرية وأوكسفورد، عمل أستاذا للأنتروبوليجيا وخبيرا بمكتب العمل الدولي بجنيف.أثرى المكتبة العربية بعشرات المقالات الموزعة في الدوريات.من مؤلفاته كتاب"المفهومات" وكتاب "الأنساق" و"المعرفة وصناعة المستقبل". عمل أستاذ أنثروبولوجيا متفرغ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية. حاصل على ليسانس الآداب (فلسفة واجتماع) – جامعة الإسكندرية 1944.

و في العراق نجد علي الوردي[12] والذي يعتبر من أوائل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في العالم العربي. فبعد ان أكمل دراسته الثانوية و تحصل على درجة البكالوريوس سنة 1936، وكان الأول في العراق، أرسلته الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت وحصل على درجة الماجيستير عام 1943، وفي عام1948 أرسلته الحكومة العراقية ثانية لاستكمال دراسته العليا في تكساس الأمريكية وحصل على شهادة الدكتوراه في علم الأجتماع سنة1950، وعاد إلى العراق سنة 1952 وعين في قسم علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة بغدادا، وقد كتب الوردي خلال عمله بالجامعة وفي مرحلة التقاعد ثمانية عشر كتابا ومئات البحوث والمقالات. وقد أتسمت كتبه ومقالاته التي صدرت بعد ثورة 14 تموز/ يوليو1958 في العراق، وفي مقدمتها دراسة في طبيعة المجتمع العراقي(1956، ومنطق أبن خلدون(القاهرة1962)، ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث في ثمانية أجزاء، بغداد(1969-1979)[13].

أما الرعيل الثاني فمنهم من تكون في الجامعات العربية ومنهم من تكون في الجامعات الغربية، ولهم صيت وباع مشرقا ومغربا أمثال يعد الدين إبراهيم، وحليم بركات(المجتمع العربي بحث أجتماعي أستطلاعي، محمد الجوهري)

أما حالة المغرب العربي فلم يتعرف على السوسيولوجية مبكرا مثله مثل المشرق العربي بالرغم من تشابه في الطريقة، وهو الأستعمار. وبالتالي لم يعرف رعيلين من السوسويولوجيين مثلما هو الحال عليه في المشرق، رعيل تكون في الجامعات الغربية ورعيل ثاني بعده في الجامعات المحلية، فلم يظهر في بلدان المغرب العربي إلا الرعيل الثاني.

ففي الجزائر مثلا، ان السوسيولوجيا كممارسة جزائرية لم تأت الأ في مرحلة جد متأخرة. صحيح ان الفرنسيين من ضباط وموظفين ورجال كنيسة قد- قاموا منذ – بداية الاحتلال بدراسات كثيرة، وأكثر من ذلك ان السلطات الفرنسية كانت قد أمرت بأجراء بحث شامل، ربما على غرار ما جرى في مصر أثناء الحملة النابولونية. وبغض النظر عن مرامي هذه الأبحاث وأهدافها فهي تمثل اليوم رصيدا هاما من المعطيات والمعلومات التي لا غنى عنها لفهم حقبة حاسمة في تاريخ مجتمعنا.

و لم تنتقل السوسيولوجيا للجزائريين إلا بعد عدة سنوات بعد الاستقلال لما بدأت تتشكل الكوكبة الأولى من السوسيولوجيين المغاربة، ويرجع غيابها أثناء الحقبة الأستعمارية إلى عدة أسباب أهمها الأستعمار نفسه، فلم يكن هذا العلم محل تدريس لا في المعاهد العليا التي تأسست سنة1879 ولا في الجامعة التي برزت إلى الوجود سنة1909. ليتظهر كوكبة من السوسويولوجيين فرنسسين في الجزائر، أمثال بيير بورديو، وشولي، وجزائريين مثل صياد عبد المالك وعبد القادر جغلول، ثم علي الكنز وجيلالي يابس ومحمد بوخبزة، نذير معروف، عدي الهواري، مصطفى بوشنتوفت،حفيظ بنون،....الخ،

وفي تونس بدأت أبحاث فرنسية ثم تواصلت أبحاث محلية، مثل دراسة فالونسي حول الأقليات المشاغبة والأقليات الصامتة، أما الأبحاث المحلية فقد أشتهر كل من سالم لبيض ودراسته حول القبيلة ,ومحمد الهادي الجويلي ودراسته حول الزعيم السياسي. أما في المغرب نجد عبد الكريم الخطيبي، ومحمد عابد الجابري، وعبد الله العروي في نقده للأنقسامية، وعبد الله الحمودي(من أهم أنتاجاته العلمية، حكاية حج موسم في مكة، الضحية وأقنعتها بحث في الذبيحة والمسخرة بالمغرب)، زكية زوانات التي بحثت في مجال التصوف(مملكة الأولياء، أبن مشيش شيخ الشاذلية)، ورحال بوبريك الذي يبحث في المجال الديني، عبد الباقي الهرماسي، والمختار الهراس.

غير ان هذه المسيرة التطورية الطويلة للسيسيولوجيا العربية تحمل بكل تأكيد كل السمات لحركة وصلت- في نهاية المطاف- إلى أبعاد آخر العلوم الاجتماعية عن نزعتها الأصلية. وفي حالة المجتمع الجزائري وشأنه في ذلك بدون شك شأن جميع المجتمعات العربية المغلوبة على أمرها/أو المستعمرة سابقا فان حصيلة السوسيولوجيا تبدو أكثر وضوحا أذا يتعلق الأمر بسوسيولوجيا لم تتمكن أبدا من أسترداد نزعتها النقدية....أي بسوسيولوجيا لم تظهر قط إلى الوجود[14].

3- سوسيولوجية عربية مرتبكة، أو سوسيولوجية الأرتباك:

بالرغم من هذه الدراسات والبحوث والتي كانت أقرب إلى صميم المجتمع العربي فان حالة عدم الرضى لدى معظم السوسيولوجيين العرب على مجهوداتهم، فمنذ منتصف القرن الماضي بدأت تظهر في الساحة الفكرية العربية جملة من الطروحات النقدية للمسار العربي تبلور فشل الاتجاهات السائدة في تبيين العلاقة الجدلية القائمة بين الفكر الاجتماعي والبنية الاجتماعية التي انتجه وبالتالي صورة هذه الأشكالية في شكل غياب كلي لعلم أجتماع عربي، أو في انحياز علماء الاجتماع إلى النظريات الغربية التي انبثقت وتطورت وتشكلت في ظروف تاريخية واجتماعية مخالفة لظروفنا[15].

من هنا بدأت تظهر محاولات فكرية واجتماعية تطالب بتجاوز مرحلة تقليد العلوم الاجتماعية الغربية والتخلص من مسلمات علم الاجتماع الغربي القائم على مواقف قيمية خاصة. وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من التساؤلات التالية: هل ان علم الاجتماع من العلوم العالمية- عامة- تخص جميع المجتمعات البشرية المتقدمة منها والغير المتقدمة؟ أم أن هناك علم الاجتماع ذو هوية عربية؟ وما هي أنجازات علم الأجتماع الغربي في المجتمعات العربية؟ هل المفاهيم الريسية للنظرية الغربية كمفهوم الدولة والأرهاب[16]، تصلح للتطبيق على واقع مجتمعنا العربي. وتعالت الأصوات منادية بعلم أجتماع عربي، ومبررات ذلك تتركز في النقاط التالية:

أ- خصوصية مشكلات العالم العربي وقصور النظريات الغربية عن فهم واقعنا الاجتماعي لان تلك النظريات التحليلية صنعت لعالم غير عالمنا ولا تحمل صلة لواقعنا الاجتماعي.

ب- ان علم الاجتماع الغربي أستلهم نظرياته من المواقف الأجتماعية والوقائع الأجتماعية للمجتمع الغربي فضلا عن الأيديدلوجية والمعرفة والأطار الفكري للعلاقات الأجتماعية السائدة لذا كان من الاجدر الانطلاق من التراث العربي لأستلهام النظرية التي تبدأ منها أول الخطوات نحو علم أجتماع عربي

ت- تستمد المفاهيم الاجتماعية من التراث العربي وتختبر على واقعنا الأجتماعي في الماضي والحاضر.

ويبدو "ان صورة علم الاجتماع العربي مازالت تتصف بالضبابية وغير واضحة المعالم، بل أنها تتخذ أحيانا شكل الأنفعال العاطفي الذي قد يؤدي الى الانتحار أو الهاوية. من ثمة فالمفاهيم الغربية والنظريات العلمية لا تمثل كتلة معينة أو منطقة دون أخرى بل تمثل الثقافة العالمية والتراث البشري فلا يتحقق علم اجتماع عربي بالرفض الكامل والشامل والقطيعة الكلية مع الإنجازات العلمية والعالمية"[17].

وقد أنتظمت ملتقيات وندوات دولية لعلماء الاجتماع العرب وطنية ودولية، للوقوف وقفة تقييمية على طبيعة عملهم، "فهذه الوضعية المزرية لهي محل الانشغال الأول لعلماء الاجتماع العرب جميعهم، فلا تكاد تحصى الملتقيات التي يتدارس فيها هاؤلاء العلماء ويتناقشون أسباب ما أصطلح على تسميته بالأزمة، إلا إذا أخذنا على سبيل المثال النصف الأول من الثمانينات للاحظنا انتظام العديد من الملتقيات العربية بغرض تحليل هذه المسألة بداية من ملتقى القاهرة(28/26، فبراير 1983) المعنون بأشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، ثم ملتقى الكويت علم الاجتماع وقضايا الإنسان العربي المعاصر، الكويت11/8ـــبريل1984. ثم حول العلوم الاجتماعية اليوم، وهران26-28 ماي 1984، ثم نحو علم اجتماع عربي تونس25-28 يناير 1985"[18]. ثم ملتقى وهران يوم الرابع والخامس والسادس والسادس من شهر ماي2002، هذا بغرض السماح لعلماء الاجتماع الجزائريين بمعالجة محددات وتداعيات وضعية علمهم. وفي الواقع لم يفعل هؤلاء العلماء شيئا آخر سوى محاولة الأرتباط مجددا بالتقليد لسوسيولوجي الأول الذي كان من صنع المؤسسين أنفسهم(دروكايم ، فيبر، باريتو) أي بممارسة السوسيولوجيا كعلم نقدي لذاته[19].

وما كثرة هذه الملتقيات إلا دليل على الأزمة التي يعيشها علمهم، بل المرض المستعصي " وقد وقف علماء الاجتماع العرب مطولا على سرير المصاب بمرض نادر أ ستعصى تشخيصه وأستلزم التشاور المكثف حوله، وهكذا فقد تعددت التشخيصات وتنوعت، فمنهم من يرد الأسباب إلى الخارج(الهيمنة الامبريالية) ومنهم من يعزوها الى الداخل(التخلف الأنظمة التسلطية واللاديمقراطية) ومنهم من يعزوها إلى علماء الأجتماع أنفسهم(مواقفهم من الطبقة البعيدة عن هموم وأهتمامات الجماهير الشعبية)"[20]. والى جانب هذا النقد الذاتي الموجه لعلماء الأجتماع ببعضهم "فهو يرى تارة ان علماء الاجتماع العرب في معظمهم مصابون بالأزدواجية والأستلاب. فهم يهتمون بالفكر الغربي أكثر مما يهتمون بمجتمعاتهم، فهم يعيشون بأجسامهم في الشرق وبعقولهم في الغرب ويضيف البعض بأن السبب يكمن أيضا في الابتعاد عن الإسلام ومقوماته الثقافي والاجتماعية، وهو يرى تارة أخرى أنهم مصابون بكسل مزمن فيكتفون بأستراد الأفكار السوسيولوجية الجاهزة عوض بذل الجهود تلو الجهود للتصدي العلمي الرزين لمجتماعاتهم قصد أنتاج معارف مقنعة حولها."[21]

حقيقة كانت ولازالت هناك مجهودات بحثية لعلم اجتماع عربي نابع من صميم المجتمع العربي، و لم تقتصرت على الإبداع في الجانب النظري، بل تجاوز ذلك إلى محاولات جادة لاستلهام تقنيات البحث الميداني من المدرسة البريطانية[22].غير ان تباينها كان أكثر من توافقها مما يجعلها مشتتة وغير مؤثرة، فمنه من حاول أعادة تفسير

التراث باستعمال أدوات معرفية حديثة، على سبيل المثال: محمد عابد الجابري ومحمد أركون، وحسين حنفي، ونصر حامد أبوزيد، وفهمي جزعان. ومنهم من حاول تطبيق المنهج المادي للتاريخ ، أو أفكار النزعة التاريخية، مثل عبد الله العروي وسمير أمين، وحسن مروة ومنهم من أستلهم المناهج الحديثة في العلوم الاجتماعية في فهم التراث مثل علي الوردي، وهشام شرابي وسعد الدين أبراهيم، ومحمد جابر الأنصاري. ثم ان أولئك الباحثين الأجتماعيين العرب ودراستهم، بالرغم من التراكمات البحثية لديهم، لم يشكلو مدرسة خاصة بهم ونابعة من صميم المجتمع العربي، أو نظري أو أتجاه بحثي يكون مرجعا وسند يعول عليه في كل بحث أجتماعي مستقبلي في المجتمع العربي. فهل هذا يرجع الى علماء الاجتماع أنفسهم، أم إلى زبائنهم(الدولة والمجتمع)، الذين لا يأخدون بعلمهم ولا يطلب رأيهم بالرغم من المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع، ولعلنا نجد الاجابة في سؤال سعد الدين أبراهيم(عالم أجتماع مصري معاصر):" ماذا يحدث للمجتمع العربي إذ أختفى علماء الأجتماع فجأة من العالم العربي؟" ويجيب هو بنفسه" بالطبع لا يحدث شيئا للمجتمع العربي لا بالسلب ولا بالأجاب، إذا اختفى علماء الاجتماع فجأة من العالم العربي". وهنا يصدق قول المرحوم جمال الدين غريد" أن السوسيولوجيا كانت في البدأ وما زالت في المجتمعات الغربية كالسمكة في الماء، أما في ما سواها فهي عبارةأستيراد وأقلمة وزرع" ويبقى لكل مجتهد مصاب.

الأحالات:

1- جمال الدين غريد، عالم الاجتماع والأنثروبولوجية جامعة وهران، لديه ما يقارب45 سنة تدريس في الجامعة الجزائرية، توفي رحمة الله عليه، يوم24سبتمبر 2013 بوهران.
2- جمال الدين غريد، الزرع الإشكالي السوسيولوجية في العالم العربي حالتا مصر والجزائر، وقائع ملتقى علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004، ص الجزائر، المرجع السابق، ص70.
3-HOBSBAWAM E., 1érre des revolitions, paris, Fayard,1969.p.10.
Selon M.Mauss, Essais de sociologie, Ed. de Minuit,1968 et 1969, Paris, 4-p.68.
5- سيف الإسلام شوية، السوسيولوجية في المجتمعات العربية المعاصرة بين الطروحات الغربية ومحاولات تشكيل خصوصية فكرية واجتماعية، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصبة، الجزائر 2004 ، ص47.
6- سيف الإسلام شوية، نفسه، ص46.
[7]- نفسه، ص47.
8- نفسه، ص48.
9- يكتب طه حسين في مذكراته أنه هوالذي بادر بالاتصال بدركايم بعد ان سمع دروسه في علم الاجتماع" وشغف به أي شغف" ويذكر أيضا أنه وقبل مناقشة الدكتوراه أختار موضوعين أثنين أحدهما علم الأجتماع كما يتصوره أجوست كونت، مذكرات طه حسين، بيروت، دار الآداب، بدون تاريخ، ص193.، نقلا عن جمال الدين غريد المرجع السابق، ص68.
[10]- جمال الدين غريد، أشكالية الزرع السوسيولوجي في المجتمع العربي، علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص69.
11- نفسه، ص69.
[12]- ولد علي الوردي في الكاظمية في العراق، في أسرة فقيرة ولكنها مرموقة في مجال العلم والأدب والشعر والتجارة، بدأ تعليمه الأبتدائية ببلدته، ثم واصل تعليمه الثانوي الى ان تحصل على درجة البكالوريوس سنة 1936، وقبل ذلك بسنة(1935)، بدأ بكتابة مقاتلاته الأدبية في بعض الصحف والمجلات البغدادية.
[13]- علي الوردي سيرورة حياة، مجلة أضافات، العدد السادس عشر،2011،ص/ص12.13.
[14]- لقجع عبد القادر، تعريب جمال الدين غريد، علم الأجتماع والمجتمع في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص11.
[15]- سيف الأسلام شوية، السوسيولوجية في المجتمعات العربية المعاصرة بين الطروحات الغربية ومحاولات تشكيل خصوصية فكرية واجتماعية، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص47.
[16]- مثلا قام أيليا رزيق(باحث أمريكي من أصل عربي) بدراسة عن طبيعة الدولة في المجتمع العرب وهي دراسة تبين ان المقولات الغربية لا تنطبق على عالمنا العربي لأن الدولة في المجتمع العربي كان لها مواصفات مختلفة عن الدولة في المجتمع الغربي، أنظر سهير لطفي

وآخرون: أشكالية العلوم الأجتماعية في الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد، جامعة الدول العربية، تونس،1982، ص141.

[17]- سيف الأسلام شوية، المرجع السابق، ص47.

[18]- جمال الدين غريد مرجع سبق ذكره، ص77.

[19]- عبد القادر لقجع، المرجع السابق، 10.

[20]- جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص77.

[21]- نفسه، ص78.

[22]- نفسه، ص51.